التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــكولن

هدية الاحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٤ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

وماذا يصنع وقد خذل فى الانتخاب وآل الحانوت إلى ما آل إليه جزاء بما فعل صاحبه ؟ الحق أنه ألقى نفسه في مأزق ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغابة ... ماذا يصنع ابراهام ليكسب قوت يومه ؟ ليس أمامه الآن غير التجارة ، لذلك اتخذ له شريكاً واشترى ما بقى من الحانوت من ذلك الرجل الذى اشتراه من قبل وعاد يبيع الناس من بضاعته ، وقد حمل العبء كله إذ كان صاحبه لا يكاد يفيق من سكره . على أنه كان عبئاً هيناً إذا كان البيع قليلا لقلة البضاعة ولقلة المشترين . وكان فى البلد حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية المعتدون لما شجر من خلاف بين صاحبه وبين زعيمهم آرمسترنج ، وعرض صاحب ذلك الحانوت بضاعته للبيع فاشتراها ابراهام ، ولكن بطريق الدين ؛ كتب على نفسه مائتين وخمسين دولاراً وعد يدفعها حين يتيسر له ذلك ... ولكن صاحبه لا يكاد يفيق من سكره فهو كلٌّ عليه أينما يوجهه لا يأت بخير ؛ وليس لدى أيب سال ليدفع إليه نصيبه ويخلص منه .

وأراد الله أن ييسر له أمره بعض اليسر ، فاختير حاملا للبريد فى تلك الجهة ؛ اختاره القائمون بالأمر لما علموا من أمانته ونشاطه ؛ وفرح ابراهام بما ساقه الله إليه ، فقد حاقت الخسارة بالتجارة وخرج منها بدين أثقل كاهله كان يسميه لفداحته بالنسبة إليه الدين الأهلى ! ... فرح ابراهام بعمله الجديد وأقبل عليه فى همة إذ أتاح له ذلك العمل أن يتصل بالناس وأن يتعرف أحوالهم ويدرس طبائعهم من قرب ، وهو كلف بذلك حريص عليه يريد به أن ينفذ إلى أعماق النفس كما هو شأنه فى كل ما يعرض له . وحبب إليه ذلك العمل ، فوق ما كان من اتصاله بالناس ، ما مهده له من سبل القراءة ، فهو يقرأ الصحف قبل أن يعطيها أصحابها ، وهو يلتهم الكتب فى ساعات فراغه التهاماً . وكان أكثر ما يقرأ يومئذ كتب القانون ، ولعله كان ينوى أن يتخذ المحاماة عملاً له ، فلقد كان الناس يأتونه ليحكموه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وهو عندهم القوى الأمين ؛ لا يتحيز إلى شخص أو فئة ، ولا يتعثر فى أمر ، ولا يسمح لأحد أن يلبس أمامه الحق بالباطل ، كل ذلك فى رفق ودراية ولباقة ... وكان إذا عرض له أمر رده إلى ما عرف من القانون ليتبين وجهه ، أو أفاد من دراسته وبحثه علماً جديداً . وقد ألقت الأقدار إليه ذات يوم كتاباً فى القانون يقع فى أربعة أسفار عثر عليه كما يعثر على كنز . وبيان ذلك أنه اشترى بثمن بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه ، وكان صندوقاً به أوراق ، قلبه فعثر فى قاعه على كنزه وهو كتاب « نظرات فى تاريخ انجلترا » لمؤلفه بلاكستون ، وكان من أشهر ما كتب فى القانون فى تلك الأيام !

وهو يعيش اليوم على راتبه الضئيل من عمله فى البريد ومما كان يرسله الناس من قوت إلى الأسرة التي كان يقيم بينها نظير ما كان يقدمه إليهم من نصح أو يسوى بينهم من خلاف . وإنك لتلمح شخص المحامي الناشئ فى شخص عامل البريد هذا ... على أنه تقدم فعلاً ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين فى بعض

الجلسات القضائية فى تلك الجهة . وعرف بسداد الرأي وقوة العارضة ومتانة الحجة ، وما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق

ومست قلبه فى تلك الأيام لدغة من الألم ، فقد ألم به ما يلم بالشباب من علل الشباب ، وانعقدت أمام بصره سحب قاتمة من الهم كان مبعثها ما دب فى قلبه من أمل جديد نحو آن ابنة صاحب الخان ، فلقد علم ، وهو صاحب البريد ، أن فتاها انصرف عنها ونسى ما كان بينها وبينه لما نزل بأبيها من فاقة ، وخيل إلى أيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها ، لولا مزاحم جديد يُدِلُّ عليه بماله وهو لا يدانيه فى كفاية ولا خلق ... على أنه فى خجله من النساء لا يعرف ما يأخذ مما يدع ، فهو فى حيرة من أمره ، وهو كما علمت متقد العاطفة موفور القوة مشبوب الخيال ، وذلك ما صور له طيوفاً من الشجن أخذت تتزايد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد الأمر أن يصل به إلى القنوط . روى عنه أنه قال لأحد خلانه : « ربما ظهر منى حينما أكون فى رفقة أننى أستمتع بالحياة فى نشوة ، ولكنى إذا أويت إلى عزلتى أخذتنى غالباً حال من الهم حتى لا أجرؤ أن أحمل معى مبراة »

وللشباب هواجس وأحلام يحار المرء فى تفسيرها وتعرف مصدرها ، فهى من خفايا النفس الإنسانية ، وكثيراً ما ينقبض المرء وهو فى حال من الرضا أو هو فى مثل حال الرضا ... هل كان مرد همه إلى طموح نفسه وتوثب همته ؟ أم كان ذلك إلى نوازع قلبه وهواجس خاطره ؟ هل كان أيب يحب آن حقاً كما يكون الحب ، أم أن إحساسه بما ينقص قدره فى أعين الفتيات كان هو مبعث هواجسه ومدعاة زلفاه ؟

إن فى انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات فى قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت ، وإن له فى الكتب لعزاء وسلوة : له فى شكسبير وبرنز ما تأنس به روحه ويثلج خاطره ، وله فى تراجم العظماء — وقد كان مقبلا عليها — من معانى السمو ومواقف البطولة ما يبهج نفسه ويثبت قلبه

وأضيف إلى عمله فى البريد عمل آخر دله عليه أحد خلصائه وهو تخطيط الأرض ورسم المصورات للطرق الجديدة التى كانت الحكومة تنشئها وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها فى مسيرهم فى تلك الأصقاع . ولقد حذق ابراهام هذا العمل الجديد وصار بعد توزيع البريد — وهو قليل — يحمل منظاره ولوحته وقلمه وينتقل بين الأحراج يرسم الطرق ، وكان يأتى ذلك بما عرف عنه من الدقة فى كل ما يعهد به إليه ... ولكن الدائنين لم يدعوه فيما هو فيه ، فأقبل أحدهم وباع جواد ابراهام وسرجه ولجامه فى مزاد نظير ماله ؛ وقد عزّ على ابراهام أن يشهد هذا البيع فابتعد حتى يتم ؛ ولكن صاحباً له يدعى جرين تقدم فدفع المال المطلوب وخلص له الجواد ولقيه فقال له : « رد لى هذا المال حينما تصبح قادراً على ذلك ، فإن لم تقدر فلا عليك منه يا صديقى » وأراد بعض الدائنين أن يبيعوا تلك الأدوات التى يقتات من العمل بها فجمع لهم بعض ذوى المروءة من أهل الجهة ما كانوا يطلبون من المال وأعفوا أدوات صاحبهم من ذلك البيع . ولقد مات جرين بعد حين وقام ابراهام يرثيه فاستعصت عليه الكلمات ولم يجد لديه غير الدموع

وجاء موعد الانتخابات وتقدم ابراهام من جديد يقدم نفسه للناس ، وكتب له النجاح هذه المرة ؛ وذهب ليتخذ مقعده فى مجلس الينويس نائباً عن جهة سنجمون وكان المبدأ الذى نجح عليه هو مبدأ الهوجز إذا أردنا السياسة ، وهو مبدأ الفضيلة والنبل والسمو إذا أردنا الخلق ...

ذهب عامل البريد ومخطط الأرض إلى حيث يجلس مع المنتخبين ، وإن له فى السياسة لشأناً بعد حين . هو الآن فى الخامسة والعشرين وقد اختاره الناس لما خبروا من خلاله وما رأوا من من سعة اطلاعه ورجاحة عقله ؛ ولكنه فقير فكيف يذهب فى ملابسه البالية إلى المجلس ؟ ... اقترض ذلك الشاب المدخر لرياسة أمريكا فى غد — بعض النقود فاشترى حلة جديدة وذهب إلى فانداليا عاصمة الينويس فاتخذ مكانه بين ممثلى الولاية ... جلس يدرس ويفكر ، لا تفوته عبارة ولا تفلت منه قضية ، وكانت مشكلة العبيد تشغل بال الناس يومئذ فى وضع من أوضاعها ، كما كانت تشغل بالهم أمور أخرى تنحصر فيما كانوا يتوخون من وجوه الإصلاح فى التجارة والصناعة وسبل الاتصال . اتضح من خلال إبراهام فى المجلس ما عطف عليه القلوب ، فقد رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماس فى غير تعصب ، فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب أو الحق فى قوة وفى إصرار يشبه العناد ، حتى إذا تبين له أن الحق فى جانب مجادله سلم له فى سرعة تسليم

الرضاء والغبطة . ورأى منه زملاؤه فوق ذلك قوة فى التعبير عما يريد كان مبعثها حسن اختيار اللفظ أو كان مبعثها لقانة توانيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص . ولقد أعجبوا منه بتلك الخلة التى ستكون فى غد جانباً من أهم جوانب زعامته ... وأنسوا منه خارج المجلس إلى خلة أخرى من خلاله اشتهر بها منذ كان فى النيابة ، تلك هى تلاوة الحكايات ، فهو ما يفتأ يقص عليهم من قصصه ما يطربهم ويعجبهم

وكان ابراهام يزور نيوسالم كلما سمح له وقته بزيارة . وهو اليوم يحب آن كما يكون الحب . أكبرت صفاته وأعجبت برجولته وصارت لا تعدل به غيره ؛ ثم أحبته وليس بعد الحب رابطة . وألفى ابراهام نفسه — وهو من عرفت قوة عاطفة وصحة وجدان — فى ربيع العمر حقاً ، لا يرى حوله إلا جمال الربيع ونشوة الربيع ، ولا يحس إلا سر الربيع ووحى الربيع ، يروح ويغدو مع صاحبته وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخمائل ... ولكن وا أسفاه ! لن يطول هذا الربيع ، بل إنه لينقلب إلى جحيم فى سرعة خاطفة ! ... نزلت الحمى كما نزلت من قبل فى كنتوكى فكان من ضحاياها طائره الجميل ! وغدا ابراهام يرمض الحزن قلبه ويأكل الجوى أحشاءه ... وتلك هى الصدمة الثانية بعد فجيعته فى أمه تحل به ، فكأنها الضربة تأتيه فى مقتل ! لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده ، وصار الناس يرونه أحياناً هائماً على وجهه وهو يهذى كأن به جنة ، حتى نصح له طبيب أن يرحل ، فنزل ضيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم فى مكان بعيد عن نيوسالم ، ولكن همه ذهب معه إلى هناك حتى لقد شاطره الحزن ذات ليلة نفر من جلسائه حين سمعوه يصرخ من أعماق قلبه : « لا أطيق أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر وتصخب العاصفة فوق قبرها » ولكم قطع من الأميال مرات بعد ذلك على قدميه فحج إلى ذلك القبر وبله بدمعه !

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا حيلة فى البلوى ولا معدى عن الحياة ... ويحين موعد الانتخابات مرة ثالثة فيتقدم فيفوز وقد ازداد الناس محبة له كما ازدادوا له إكباراً بقدر ما اكتسب من خبرة فوق ما سلف من خبرته ، وأظهرته الانتخابات هذه المرة للعامة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب ، قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطى ، وكان قد حصل بتعيينه مبدأه على مرتب سنوى غير قليل ؛ وقد علم الناس أنه كان يقيم فى منزل أنيق فى سبرنجفيلد فى قمته تلك الحديدة التى يضعونها هناك لتمنع الصواعق . ولقد أسرف ذلك الخصم فى الطعن على ابراهام وأعلن أنه يريد أن يحط من قدره فى نفوس الناس . فوقف ابن الأحراج ورد عليه بقوله : « رأى هذا السيد أن يشير إلى حداثة سنى ، ولقد نسى أنى أكبر فى العمر منى فى الاعيب السياسة وتجارتهم . إنى أود أن أعيش كما أود أن أرقى وأن تلحظ مكانتى ، ولكنى أفضل الموت على أن أحيا فارى اليوم الذى أفعل فيه ما فعل ذلكم السيد ، فأغير مبدئى من أجل ثلاثة آلاف دولار فى العام ، وأرانى بعد ذلك مضطراً أن أقيم على رأس بيتى مانعة للصواعق لأحمى ضميراً آثماً من غضب رب أسأت إليه »

وإنك لتتبين مهارته السياسية فوق ما تلمح من صفاته فى هذا الخطاب الذى أرسله إلى أحد رجال الحزب الديمقراطى .

كتب لنكولن [1] « أنبئت أنك أذعت فى الناس أثناء غيابى فى الأسبوع الماضى أن لديك حقيقة أو حقائق لو اطلع عليها الناس لقضت نهائياً على أملى وأملك . ادوارد فى حركة الانتخاب القائمة ، ولكنك تأبى عليك مجاملتك إيانا أن تعلنها . وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجميل أكثر مما أطلب ؛ كذلك قل فى الناس من يقبل الجميل كما أقبل ؛ ولكن الجميل إلى فى هذه الحال معناه الجور فى حق الناس ؛ ولذلك فإنى أستميحك أن تنصرف عنه . إن حيازتى ثقة أهل ستجمون ذات مرة أمر واضح ؛ فإذا كنت قد أتيت أمراً من شأنه إذا عرف أن يحرمنى تلك الثقة ، سواء كان إتيان ذلك الأمر عن إصرار أو عن خطأ فإن الذى يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده . وأنا لا يقوم فى ذهنى شىء عما عساه أن تكون الحقيقة أو الحقائق التى تتحدث عنها واقعية كانت أو مزعومة ؛ بيد أن ما أعهده فيك من الصدق لا يسمح لى برهة أن أشك فى أنك على الأقل تعتقد ما تقول . إنى أرانى مديناً لك بهذا الاعتبار الشخصى الذى أظهرته نحوى ، ولكنى آمل أن ترى إذا تأملت من جديد أن صالح الناس أهم من ذلك . وعلى هذا فلا تتحرج أن تعلن الحق . وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق فى صدق وأمانة لن يفصم ما بينى وبينك من عرى الصداقة . هذا وإنى أرجو أن

(1) Speeches and Letters of Abraham Lincoln P. 2.

يأتيني رد منك على هذا ولك الحرية أن تنشر الكتابين إذا أردت » .

اقرأ هذا الخطاب تر كيف ملك إبراهام قلوب الناس بأمانته وإخلاصه ودمائته . ثم انظر إلى قوة حجته وروعة منطقه ودهائه؛ وتأمل فى أدبه وتحشمه وهو يرد الاهانة عن نفسه .. تلك لعمرى خلال أحرار الشمائل وعظماء الرجال ...

فاز لنكولن فى الانتخاب وحق له أن يفوز . ولقد خطب الناس مرة فكان مما قاله : « سأسعى أن يفوز جميع البيض من يدفع منهم ضرائب ومن يحمل السلاح بحق الانتخاب (لا أستثنى من ذلك النساء بأى حال) فاذا انتخبت فسأعتبر أهل ستجمون جميعاً هم مرسلى سواء من اختارنى منهم ومن لم يفعل ، وحينما أعمل فى المجلس كنائب عنهم سوف أصدر فى عملى عن إرادتهم فى كافة الأمور التى أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها ؛ وفى غير ذلك سأسير وفق ما يمليه على تقديرى مراعياً مصالحهم أبداً »

ذلك هو دستور لنكولن وتلك هى أخلاقه فى مجال السياسة ذلك المجال الذى سينضج فيه شخصه وتكتمل رجولته وتبرز مواهبه وتسفر مظاهر عبقريته . كان له فى المجلس أصدقاء منهم ثمانية كانوا مثله فى طول القامة ، ولقد كانوا يجلسون رفقة يتحدثون ، فعرفوا باسم التسعة الطوال ، ولكن ابراهام كان أطولهم باعاً فى المعرفة وأعلاهم مقاما فى الخلق ، فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم فى وضوح ، فهم معجبون بدمائته وأنانه وبعد نظره ، وهم مفتونون ببلاغته وأسلوبه فى الحوار والمجادلة ، وهم يغبطونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته ، يحمدون له رقة عاطفته وشفقته وسلامة طويته ، وهم فوق ذلك يلذهم حديثه وتطربهم أقاصيصه ويأسر قلوبهم تواضعه وأدبه وسذاجته

وإنه اليوم ليقرأ قراءة منظمة فقد مرّ العهد الذى كان يتناول فيه أى كتاب يصادفه . هو اليوم يقلب صفحات التاريخ فليس ألزم منها لرجل السياسة ؛ وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه ؛ وهو يدرس أحوال أمريكا من شتى نواحيها ؛ يطيل النظر فى تاريخ ساستها ويتأمل فى مناهجهم فى الاصلاح وأساليبهم فى توطيد سياستهم ؛ يستوعب ذلك كله ليسير على ضوئه فيما هو مقبل عليه . ومما استرعى اهتمامه يومئذ مسألة العبيد وتاريخها وتطورها ومكانها من السياسة العامة

يتخذ اليوم ابراهام لنكولن مكانه للمرة الثانية فى مجلس مقاطعة النيوس وهو فى السابعة والعشرين ، ولا يدرى هو ولا من يحيطون به من ممثلى الجهات فى ذلك المجلس ماذا يخبئه الغد لذلك الرجل الطويل القامة ، عامل البريد ، مخطط الأرض ، ابن الأحراج ، ربيب العسر والفاقة ومحن الأيام !

(يتبع) الخفيف

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

لإمام الحكماء أبى العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعرى

المولود سنة ٤٤٩ هـ المتوفى سنة ٤٩٢ هـ

قصد أبو العلاء بهذا الكتاب الافادة والتعليم ، فتناول فيه عدة علوم ومعارف من شتى الفنون ، وتخير لذلك أجل مظهر وهو تمجيد الله وعظة الناس ؛ فحسب من لم ير الكتاب أنه انما ألفه ليجارى به القرآن الكريم أو يعارضه . ورتبه على فصول بعدد حروف الهجاء ؛ أما الغايات فهى خاتمة كل فقرة منه ، وهى عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وجد منه (الجزء الأول) وينتهى بانتهاء حرف الخاء . وقد ظل مفقوداً هذا الدهر الطويل حتى انتهى الجزء الأول منه إلى المرحوم تيمور باشا ، ووفق الله لضبطه بالشكل الكامل وشرح غريبه والتعليق عليه الأستاذ :

محمود حسن زناتى

أمين الخزانة التيمورية (سابقاً)

وطبعه على ورق جيد ، وتبلغ صفحاته ٤٩٤ ، ووضع به لوحتين بالفتوغراف من النسخة الأصلية التى طبع منها وهى المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهو يطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ، ويباع فى جميع المكاتب الكبيرة وثمنه ثلاثون قرشاً صاغاً غير أجرة البريد